لمـــاذا

قيـــام الليـــل ؟

لقد جمعت كتابي هذا للسائرين على الدرب وحملة النور من شباب هذه الأمة واستخرت الله العظيم وجمعت ما جمعت فى قيام الليل وأحوال القانتين فى ليلهم من تهجد وبكاء ومناجاة وتلاوة واستغفار لعدة معان هى روح الحركة الإسلامية فبها قوامها .

(١) كونه صلاة .. والصلاة خير موضوع

وقد قال الرسول ﷺ :

« **الصلاة خير موضوع لمن استطاع أن يستكثر فليستكثر** »(١) « لأن بها تبدو قوة الإيمان فى شهود ملازمة خدمة الأركان ، ومن كان أقواهم إيمانا كان أكثرهم وأطولهم صلاة وقنوتا وإيقانا كما قال المناوى رحمه الله »(٢)

« وأى دعوة تريد أن تستقيم إلى الله فعليها أن تدلف من باب الاستقامة وبابها المحراب »(٣)

« وسجود المحراب واستغفار الأسحار ودموع المناجاة : سيماء يحتكرها المؤمنون .. ولئن توهم الدنيوى جناته فى الدينار ، والنساء والقصر المنيف فإن : جنة المؤمن فى محرابه »(٤)

وقيام الليل صلاة فيها كل مافى الصلاة من معان ترتفع بالإنسان بعيداً عن

---

(١) حسن : رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة كما أشار إلى ذلك السيوطى والألبانى . وقال المناوى : « ظاهر كلام المؤلف ، يعنى السيوطى ، أنه لم يره مخرجا لأعلى من الطبرانى ولا أحق بالعزو إليه وليس كذلك فقد رواه أحمد وابن حبان والحاكم فى صحيحه عن أبى ذر ، وأشار السيوطى إلى ضعفه وقال الهيثمى فيه عبد المنعم بن بشير » وحسّن الحديث الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٣٧٦٤ .

(٢) أنظر فيض القدير للمناوى جـ ٤ ص ٢٤٧ طبع المكتبة التجارية الكبرى .

(٣) الرقائق لمحمد أحمد الراشد ص ١٥ .

(٤) الرقائق ص ٢٧ .

هجير الحياة ولذا كان رسولنا ﷺ يقول : « **يا بلال أقم الصلاة ، أرحنا بها** »[1]

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله :

« حين يطول الأمد ، ويشق الجهد قد يضعف الصبر ـ الصبر على الطاعات ، والصبر على بطء النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتفاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، الصبر على طول الطريق الشائك ، والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلوب ، وثقلة العناد ، ومضاضة الإعراض ـ أو ينفد إذا لم يكن هناك زاد ومدد ـ ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر فهى المعين الذى لا ينضب ، والزاد الذى لا ينفد

المعين الذى يجدد الطاقة ، والزاد الذى يزود القلب ، فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع ، ثم يضيف إلى الصبر الرضى والبشاشة والطمأنينة والثقة واليقين .

إنه لا بد للإنسان الفانى الضعيف المحدود أن يتصل بالله حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة ، حينما تواجهه قوى الشر الظاهرة والباطنة ، حينما يثقل عليه جهد الإستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع ، وحينما تثقل عليه مجاهده الطغيان وهى عنيفة ، حينما يطول به الطريق ، وتبعد به الشقة فى عمره المحدود ، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئا ، وقد أوشك المغيب ، ولم ينل شيئا وشمس العمر تميل للغروب ، حينما يجد الشر نافشا والخير ضاويا ولا شعاع فى الأفق ولا معلم فى الطريق هنا تبدو قيمة الصلاة .

إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفانى ومولاه الباقى .

إنها الموعد المختار للالتقاء بالنبع الذى لا يغيض .

إنها مفتاح الكنز الذى يغنى ويقنى ويفيض .

---

(١) صحيح : رواه أحمد فى مسنده وأبو داود عن رجل من خزاعة وصححه الألبانى انظر صحيح الجامع رقم ٧٧٦٩ ومشكاة المصابيح حديث رقم ١٢٥٣ .

إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضى الصغير إلى مجال الواقع الكونى الكبير

إنها الروح والندى والظلال فى الهاجرة

إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود .

إنها زاد الطريق ومدد الروح وجلاء القلب .

إن الله سبحانه حينما انتدب محمدا ﷺ للدور الكبير الشاق الثقيل قال **له ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾**[1] فكان الإعداد للقول الثقيل والتكليف الشاق والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن ، إنها العبادة التى تفتح القلب ، وتوثق الصلة ، وتيسر الأمر ، وتشرق بالنور ، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والإطمئنان .

ومن ثمَّ يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام إلى الصبر والصلاة »[2] أ هـ

قال تعالى **﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾**[3] وقال تعالى **﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين ﴾**[4] .

(٢) مدرسة الليل مدرسة الإخلاص

ويأتيك صوت قتادة « كان يُقال ما سهر الليل منافق »[5] وهل تجد الصبر

---

(١) المزمل .

(٢) « الظلال » للشيخ سيد قطب

(٣) سورة البقرة آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٥٣ .

(٥) حلية الأولياء جـ ٢ ص ٣٣٨ .

والصلاة وعلو الهمة وعمل السر إلا فى قيام الليل ربّى الله الرعيل الأول من الصحابة عليها فى بدء الدعوة اثنا عشر شهرا كاملا على عبادة عنوانها الإخلاص وقوامها الصبر ، حين يترك الإنسان المتهجد دفء الفراش ويصف قدميه فى محرابه بين يدىْ مولاه ، ولو استطاع أن يُخفى عمله هذا عن الحفظة لأخفاه ، لسان حاله يناجى مولاه .

ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثرا من فيه جواهر البلاغة الآسرة للناس ، كما ينص على ذلك طب عبد القادر الجيلانى فى قوله : « كن صحيحا فى السر : تكن فصيحا فى العلانية » وأما المخلط فى نيته فيخلط عليه فى أموره وسيرته كان ذلك فى التاريخ على أهل التخليط حتما مقضيا وهو المعنى الذى كشفه التابعى الجليل مطرف بن عبد الله بن الشخير فى قوله : « صلاح العمل بصلاح القلب ، وصلاح القلب بصلاح النية ، ومن صفا : صُفّى له . ومن خلط : خُلِّط عليه »

و « إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى فى قلبك » كما يقول مصطفى صادق الرافعى »[1] .

إن تعلّم « الإخلاص » ، وفضح الأمل الكاذب الدنيوى أحلى أعطيات مدرسة الليل كما يقول وليد ـ الأعظمى ـ وذلك ما توجب تربيتنا تركيزه وتعميقه فى النفوس .

سيبدو لكم فى مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبدو السرائر .

ولا تنتصر الدعوة إلا حين لا يكون فى عقود الدعاة معها ومع ربها للشيطان نصيب .. لسان حالها يقول « لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب فرب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية » .

قال ، [illegible] ما قال :

---

(١) الرقائق ص ٤٤ ، ٤٥ ـ وحى القلم ٢/٤٤ .

يـالـيـل قـيـامك مـدرسـة فيهـا الـقـرآن يـدرسنى
مـعنى الإخلاص فـألـزمـه نهجـا بـالجنـة يجلسنى
ويُـبَصرنى كـيـف الـدنـيـا بـالأمـل الـكـاذب تغمسنى
مـثـل الحربـاء تـلـونها بـالإثم تحاول تـطـمسنى
فـأبـاعـدهـا وأعـانـدهـا وأراقبهـا تتهـجسنى
فـأشـد الـقـلـب بخالـقـه والـذكـر الـدائم يحرسنى[1]

عنوان القيام ترك الأمانى ... وعلو الهمة

وكيف يكون فى القيام وترك دفء الفراش توانى أو أمانى قال يحيى بن معاذ « لا يزال العبد مقرونا بالتوانى . مادام مقيما على وعد الأمانى .

وما اختار أحد الأمانى تقوده إلا كان أثقل ما يكون خطوا ، ووجد ثمّ السراب الخادع ، وعَدِم الماءَ وقت العطش ، وأما المضىء النفس ، ومنْ لا أُمنية له من الدعاة ، فإنك تجده سبّاقا إلى الخير إلى كل خير أبدا ، وتجده على ري دوما ، فإنه إن كان ذا قوة: استسقى لنفسه أو استسقى لغيره، فيجيبه الله بهطل من السماء ، وإن كان مستضعفا : وجد وريثا لموسى عليه السلام . يسق له ويزاحم الرعاع »[2] .

وفى قيام الليل علو الهمة وكم فيها من صلاح للدعوة وحياة الأمم والدعاة .

استمع إلى صوت الجيلانى يهدر

« سيروا مع الهمم العالية »[3] ولازال هذا الطريق هو الطريق المعبد الوحيد فى خارطتنا . أما الجبن والانزواء والتأوه فصحارى مهلكة »[4] .

---

(١) الرقائق ص ٣٣ ـ ٣٤ ـ أغانى المعركة (٣٨) .
(٢) الرقائق ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣) الفتح الربانى للجيلانى ص ٢٩٨ .
(٤) الرقائق ص ١٤٠ .

أفتكون يا أخي من أصحاب الأماني المتأوهين « تكون عالما بها ولا تنهض همتك إليها ، فلا تزال فى حضيض طبعك محبوسا ، وقلبك عن كمالك الذى خلقت له مصدودا منكوسا ، قد أسمت نفسك مع الأنعام ، راعيا مع الهمل ، واستطبت لقيمات الراحة والبطالة ، واستلنت فراش العجز والكسل ، لا كمن رفع له علم فشمر إليه ، وبورك له فى تفرده فى طريق طلبه فلزمه واستقام عليه ، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله ، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه فى سيره »[1]

إن حياة النفس فى السمو ، ونجاتها فى العلو ، بل نجاة الأمم

همم الأحـــرار تحيي الـــرمما نـفـحـة الأبـرار تحى الأمما

همتك احفظها بقيام الليل ، فإن الهمة مقدمة الأشياء فمن صلحت له همته وصدق فيها ، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف فيقول :

« مثل القلب مثل الطائر ، كلما علا : بعد عن الآفات ، وكلما نزل : احتوشته الآفات »[2] .

فكما أن الاستعلاء بالهمة يبقى القلب نظيفا بريئا من المعنى الخسيس مشغولاً بالعظام ، فإنه يقي القلب من الآفات والأمراض وسهام الشيطان كما تقى نهضة الجناحين الطائر سهام الصياد ومهمة المربى المسلم : أن يعلم الناشىء هذه النهضة العالية فى مبادىء محاولاته .

ونهضة الجناحين هى بدورها كناية عن النفس التى احتوت تصميما على حمل أثقال الدعوة إلى الله . فإن الجديد فى سلك الدعوة إن فهم الدعوة فى الأول

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم جـ ١ ص ٤٦ .

(٢) الجواب الكافى ص ٧٠ .

مجرد تزكية نفس ، وصحبة أخيار ، وبث أشواق فإنه يحجم عن إنكار المنكر على المظالم ، ويرجع عن الزحف وقائمة أعذاره تحت أحد إبطيه ، أولها : إنه لم ينذر بمثل هذا من قبل ، ولا يحتوى هذا الشرط عقده .

ولذلك حرص رجال التربية على أن تكون « أول خطوة للسالك خطوة هول »[1] وسلفهم فى هذا رسولهم ﷺ وأصحابه فقد قاموا الليل فى بدء الدعوة اثنا عشر شهرا كاملا حتى انتفخت أسواقهم وأوداجهم .. صدقوا الله فصدقهم .

إن انتصار الدعوة لا يكمن فى كثرة الرق المنشور ، بل برجعة نصوح إلى العرف الأول ، ومتى ما صفت القلوب بتوبة ، ووعت هذا الكلام أذن واعية ، كانت تحلة الورطة الحاضرة التى سببتها الغفلة المتواصلة ذلك شرط لا بد منه .

وكأن النصر حجب عنا لأننا نادينا من وراء الحجرات ، وجهرنا رافعين أصواتنا نوجب على الله لنا هذا النصر بإدلال ، نبيعه ونرى لنا حقا عاجلا فى الثمن من دون أن نقدم بين يدى بيعنا همسا فى الأسحار ولا الدمع المدرار وإنما النصر هبة محضة ، يقرّ الله بها عين من يشاء من رجال مدرسة الليل فى الحياة الدنيا ، ولا يلت الآخرين المحصرين من ثمنهم فى الآخرة شيئا ، ويوقع أجرهم عليهم .

إن دعوة الإسلام اليوم لا تعتلى حتى يذكى دعاتها شعلهم بليل ، ولا تشرق أنوارها فتبدد ظلمات جاهلية القرن العشرين مالم تلهج ـ بالذكر ـ .

قال الشيخ حسن البنا رحمه الله :

« دقائق الليل غالية ، فلا ترخصوها بالغفلة »

أفعيينا أن نعيد السمت الأول ، أم غرّنا اجتهاد فى التساهل والتسيب والكسل جديد .

---

(١) الرقائق ص ٤٦ ، ٤٧ .

إن القول لدى الله لا يبدل . ولكنا أرخصنا الدقائق الغالية بالغفلة فثقل المغرم . ولم يجعل الله لنا من أمرنا يسرا »[1]

(٤) قيام الليل باب التزكية الأعظم

قال تعالى ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾[2]

لقد أقسم الله بأحد عشر قسما متتاليا ما وردت فى القرآن إلا فى غير هذا المكان أن الفلاح فى تزكية النفوس.

هذه هى « التزكية النبوية التى نطق بها الرسول ﷺ و « الربانية » التى طولب بها العلماء .. ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون »[3]

إن من يتخرج فى مدرسة الليل يؤثر فى الأجيال التى بعده إلى ما شاء الله ، والمتخلف عنها يابس ، قاس تقسو قلوب الناظرين إليه ، والدليل عند بشر بن الحارث الحافى منذ القديم ، شاهده ، وأرشدك إليه فقال :

« بحسبك أن قوما موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وأن قوما أحياء تقسو القلوب برؤيتهم »[4] بل تموت القلوب برؤيتهم فلم كان ذلك إن لم يكن ليل الأولين يقظة وليل غيرهم نوما ، ونهار الأولين جدا ونهار الآخرين شهوة »

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى :

« إن تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن شعبة من أهم شعب النبوة »[5] .

---

(١) الرقائق ص ٣٢ ، ٣٣ .
(٢) الشمس آية رقم ٩ .
(٣) « ربانية لا رهبانية » للشيخ أبى الحسن الندوى ص ١٥ طبع مؤسسة الرسالة .
(٤) الرقائق ص ٣٤ .
(٥) « ربانية لا رهبانية » ص ١٤ .

ويذهب رحمه الله إلى « أن إحياء الإخلاص والأخلاق وتجديدهما أكبر واجبات ومهمات هذا العصر وفريضة الداعى »[١]

ويقول رحمه الله « إذا تأملنا القرآن وجدناه ينوّه بشعبة من شعب الدين ، ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ « التزكية » ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الأعظم ﷺ لتحقيقها وتكميلها ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ وهى تزكية النفوس وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل .

ولا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع فى حياتنا ومجتمعنا ونسد هذا المكان الذى كان يشغله الدعاة إلى الله والربانية والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها .

أَقِلّوا عليهم لا أبا لأبيكم
مِن اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سدّوا[٢]

ثم يتكلم الشيخ الندوى عن دور الربانيين فى إخضاع التتار الفاتحين لدين أمة مفتوحة فيقول رحمه الله :

« لمّا فتح التتار العالم الإسلامى فى القرن السابع الهجرى ، وأثخنوه جراحا وقتلا ، ولم يتركوا فيه إلا روحا ضعيفة ونفسا خافتا ، وفُلّ سيف الجهاد والمقاومة فأصبح لا يؤثر ولا يعمل ، وأغمده المسلمون يأسا وقنوطا ، وآمن الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم وأن العالم الإسلامى قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج ، وأن الإسلام لا مستقبل له ، قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح ـ على إحصائه واستقصائه ـ يجهل أسماء

---

(١) « ربانية لا رهبانية » ص ٤٠ .

(٢) ربانية لا رهبانية ص ١٥ .

كثير منهم ، يتسربون فى هؤلاء الغلاظ الشداد ، يفتحون قلوبهم للإسلام ، حتى تفتحت له وأحبته ، وصاروا يدخلون فى دين الله أفواجا .

وهكذا أخضعوا للإسلام من أخضع العالم الإسلامى بالأمس من شرقه إلى غربه ، وأدخلوا أمة قهرت الأمم كلها فى عصرها فى دين لا يحميه سيف . ولا يدافع عنه جيش وقد كانوا ثلاث ديانات ـ هى أعظم ديانات العالم ـ تتنافس فى اكتساب هذه القوة القاهرة للعالم : « البوذية » و « المسيحية » و « الإسلام » ، وكانت البوذية أقرب إلى فطرتها وبيئتها ، وكانت النصرانية أرفع مكانة وأقرب زلفى فى مجالس سلاطينها ، ولكن الإسلام ـ بفضل دعاته المخلصين ـ انتصر على منافسيه ـ البوذية والنصرانية ـ وأسلم التتار أمة وجنسا ، وكونوا دولا إسلامية كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمل بها تاريخ الإسلام ، وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين حادثة غريبة لا تعلل إلا بمشيئة الله تعالى وتأييده ، وتفوق دعاة الإسلام فى الإخلاص والروحانية على دعاة البوذية والنصرانية .

يقول أرنلد

« لقد كان منافسة هذه الديانات العظمى فى إخضاع القوة القاهرة لعقيدتها صراعا عجيبا ينظر إليه التاريخ ، وينظر إليه العالم بدهشة واستغراب ، كل يحاول أن يخضع هؤلاء الوحوش القساة الذين داسوا هذه الديانات وحطّموها .

لم يكن أحد يتوقع أن الإسلام سينتصر فى هذه المعركة ويهزم البوذية والنصرانية ويستأثر بالتتار ، فقد كانت عاصفة هجومهم وغارتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم ، وكانت خسارتهم فى ذلك أعظم من خسارة أية أمة ودولة وديانة . وقتل التتار علماء المسلمين وفقهاءهم وأسروهم واستعبدوهم ، وقد كان ملوك التتار وأمراؤهم يعطفون على كل ديانة سوى الإسلام .

ولكن رغم هذه المصاعب دان المغول والأمم الوحشية التى جاءت بعدهم

بديانة أمة داستها بأقدامها واعتنقت الإسلام »

ولا شك أن الفضل فى ذلك ـ كما صرح به « أرنلد » وغيره من المؤرخين الإسلاميين يرجع إلى هؤلاء الدعاة المخلصين وربانيتهم ، وحرصهم على إرشاد هؤلاء الظالمين الذين سفكوا دماء المسلمين.

وقد نقل « أرنلد » قصة طريفة تدل على أسلوب دعوتهم ، ورقة موعظتهم وتجردهم من الأنانية والكبرياء ، وكم لها من أمثال فاتت التاريخ ، وأفلتت من أعين المراقبين وأقلام المسجلين.

أسلم سلطان (كاشغر) الذى كان يسمى « تغلق تيمور خان (١٣٤٧م ـ ١٣٦٣م) على يد الشيخ « جمال الدين » الذى جاء من بخارى ، وكان من خبره ، أنه كان مع رفقة له فى رحلته ، فمروا بأرض السلطان التى كان قد حماها للصيد وهم لا يشعرون وأمر بهم الملك ، فأوثقوا ، وعرضوا عليه ، وقال ـ وقد استشاط غضبا : كيف دخلتم فى حماى من غير إذن ؟

قال الشيخ : نحن غرباء ، ولم نشعر بأننا نمشى على أرض ممنوعة . ولما علم الملك أنهم إيرانيون ، قال فى احتقار وسخرية : حتى الكلب أفضل من الإيرانيين.

قال الشيخ : صدق الملك ، لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكنّا أذل من الكلاب . وتحير الملك ومضى للصيد ، وبقيت الكلمة تشغل فكره ، وأمر بعرضهم عليه بعد الصيد ، ولما رجع خلا بالشيخ وقال : فسِّره لى ما قلت ، وأخبرنى ما تعنى بالدين الحق ؟

وفسّر الشيخ الإسلام فى حماسة وقوة تفسيرا رقّ له قلب السلطان ، وصوّر الكفر تصويرا بشعا هائلا فزع منه السلطان وأيقن أنه على ضلال وخطر.

ولكن السلطان رأى أنه لو أعلن الإسلام لما استطاع أن يدخل قومه فى

الإسلام ورجا الشيخ أن ينتظر حتى إذا سمع أنه ولى الملك ، وجلس على أريكة الحكم ، زاره ، وكانت المملكة « الجغتائية » قد توزعت فى إمارات متعددة ، واستطاع « تغلق تيمور » أن يجمعها ، ويكوّن منها مملكة صغيرة ، ورجع الشيخ « جمال الدين » إلى بلاده ، ومرض مرضا شديدا . ولما حضرته الوفاة ، دعا ولده « رشيد الدين » وقال له : إن « تغلق تيمور » سيكون فى يوم من الأيام ملكا عظيما ، فإذا سمعت بذلك تزوره ، وتقرئه منى السلام ، وتذكره بما وعدنى به « من اعتناق الإسلام » وكان كذلك ، فقد بويع « تغلق تيمور » بالملك ، وجلس مكان أبيه ، ودخل الشيخ « رشيد الدين » فى المعسكر لينفذ وصية أبيه ، ولكنه لم يخلص إلى الملك ، فاحتال ، وبدأ يوما يؤذن بصوت عال عند خيمة السلطان فى الصباح الباكر ، فطار نوم السلطان وغضب وطلب الشيخ « رشيد الدين » وحضر الشيخ ، وبلّغ السلطان تحية والده ، وكان السلطان على ذكر منه ، فنطق بالشهادتين وأسلم ثم نشر الإسلام فى رعيته ، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التى كانت تحت سيطرة أولاد جغتاى بن جنكيز خان [1] .

(٥) الجهاد يُسقى بدمع التهجد :

إن الذنب لا يُسقى إلا بدمع ، والشجاعة تسقى بدموع الليل ، وما عرف الإسلام رجاله إلا كذلك ، ولم يقل ابن القيم باطلا فى وصفه لهم بأنهم :

فى الليل رهبان وعند جهادهم
لعدوهم من أشجع الشجعانِ

أخى : ما بغير البذل ينطق قاموسنا .. ولأجله كتبت وجمعت جمعى وهذه كتائب الحق قد دنت أو أوشكت أن تدنو فأين زادك من قيام الليل .

يقول الشيخ الندوى :

(١) « ربانية لا رهبانية » من ص ٣١ ـ ٣٥ ـ كتاب الدعوة إلى الإسلام لأرنلد ص ٢٥٦

« مما يجدر بالذكر ويسترعى الإنتباه أن تلك القوة المعنوية والروحية ، والشخصية القوة الفذة ، والإخلاص والربانية والحنان والعاطفة والإقدام والشهامة التى تحتاج إليها للتضحية والفداء وبذل المهج والأرواح ، والجهاد والكفاح ، والتجديد والإصلاح ، والفتح والتسخير ، لا تنشأ ولا تظهر فى أكثر الأحيان إلا بعد صفاء الروح وتهذيب النفس والرياضة والعبادة .

ولذلك نرى أن أكثر من قاموا بدور التجديد والجهاد فى تاريخ الإسلام كانوا يتمتعون بمكانة روحيـة سامية »

ثم يقول رحمه الله :

« والحقيقة أن هذه المجاهدات والرياضات وتزكية النفس والصلة بالله تنشىء فى الإنسان حالة عجيبة من الشوق والوجد والحب والحنان تتغلغل فى أحشائه ، وتستقر فى أعماقه حتى تراه ، ينشد بلسان حاله ويقول « إنى لا أملك شيئا أفديك به إلا هذه الحياة التى أعرتنى إياها فهى منك ولك ، ومن فيضك وفضلك ، فنهاية المطاف فى هذه الرحلة الروحية والسلوك الطويل هى حب الشهادة والغاية الأخيرة من هذه المجاهدة والرياضة هى الجهاد .

إن اليقين والحب هما جناحان لصقر الجهاد والإجتهاد يحلق بهما فى السماء .

وذلك هو السر فى ما نرى من وجود شخصية فذة قوية على رأس كل حركة للجهاد والكفاح ، نفخت فى المجاهدين روح الحماسة واليقين ، وحملت هذه الشرارة إلى صدور المؤمنين الآخرين حتى شقت عليهم حياة الهدوء والنعيم والترف وأصبحوا لا يطيقونها »[1]

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجامع

(١) ربانية لا رهبانية ص ١١٣ وما بعدها .

سرِّح طرفك فى القرون : ـ

مضوا يحفرون بدمع القيام وبذل الدماء طريق الإياب

- فى عبّاد بن بشر وقيامه الليل وجهاده واستشهاده
- فى سالم مولى أبى حذيفة
- فى صلة بن أشيم وتهجده وحبه للغزو
- فى عمرو بن عتبة وفى عتبة الغلام
- فى هارون الرشيد وغزوه عاما وحجه عاما
- فى ابن المبارك
- فى ابن تيمية وجهاده للتتار
- فى قاهر الصليبيين نور الدين محمود زنكى
- فى بطل حطين صلاح الدين الأيوبى
- فى «محمد الفاتح» وفتحه للقسطنطينية
- فى عبد القادر الجزائرى والشيخ حسن البنا

ليست دعوتنا لقيام الليل دعوة سلبية ، وإنما هى دعوة تدندن حول البذل وعودة مجد الإسلام تنادى

هل من صلاح يعيد السيف فى يدنا أو تبتروها فقد شلت أيادينا

وسطورى هذه التى سأكتبها عبيرها من نسيم السحر ، وأريجها من أنفاس المتهجدين الركع السجود

قوم كرام السجايا أينما جلسوا
يبقى المكان على آثارهم عطرا

يصدق فيهم قول الشاعر :

مقامات أعلام ترى الشهب دونها
بنوها بياقوت المواهب والدّر

تضىء الـــديـــاجى من بهاء جمالهـــا
بها يهتـــدى من لـــلـــعلا نحوهـــا يسر

فسبحان من أيقظ المتهجدين والناس نيام ، وجعل خلواتهم معه أنسهم وميدانهم ، والمناجاة روائحهم وريحانهم ، وذكره نزهتهم وبستانهم ، وتلاوة القرآن نعيمهم وعنوانهم وشوقهم دوما لقناديل علقت بالعرش فى دارهم وأوطانهم .

- فهيا يـا أخى : أغلق باب الراحة ، وافتح باب الجهد
اغلق باب النوم وافتح باب السهر

وخلّ الهوينا للضعيف ولا تكن نـؤومـا فـان الحزم ليس بنائم

- لا تكن من قوم قال فيهم أحد الصالحين :

« إنكم تلبسون ثياب الفراغ والراحة قبل أن تعملوا »

- هيا يا أخى إلى نداء ثابت البنانى رحمه الله :

« كابدت الصلاة عشرين سنة واستمتعت بها عشرين سنة »

- هيا إلى صحبة الساهرين مع النجوم ، الآنفين من الهجود
- هيا يا أخى إلى الآخرة ودع الدنيا وليكن نشيدك قول شميط بن عجلان رحمه الله يسرى فى حياتك مسرى الدم فى العروق خلال هجير زماننا

« صبرًا على لأوائها والموعد الله »